في التثاقُف

ثقتي بالله عظيمة لا تُحَدّ، فقد منحني أكثر ما استحقُّ بكثير، وجعلني غنيّاً بسمعتي وأصدقائي، ويسَّر لي منذ صغري، سُبُل التقدّم والفلاح. مردّ ذلك إلى رضا والديَّ. وكثيراً ما سمعتهما يُرددان أمامي قولهما: «روح يا جهاد، تمسك التراب يُقلب ذهب».

لم ينقلب التراب بين يديَّ ذهباً، ولكنَّ هذه الأداة الخشبية في الأساس التي يسمّونها «القلم» كانت منبع رصيد معنوي لم يشأ الله أن ينضب.

شكوتُ ذات يوم من مرض «الماء الزرقاء»، ما استوجب جراحة بُعيد رحيل شريكة حياتي.. ذكرت رضا الوالدين وحب الحبيبة ووضعت ثقتي بطبيب العيون وليد حرب..

صباح يوم من الأيام، كنتُ ممدّداً على طاولة العمليات في أحد المستشفيات..

شئت أن أُبعد نفسي والأطباء «المتواطئين» عن جو السكينة الممزوجة بالرهبة والترقّب الحذر، فطفقت أنشد أبياتاً من عيون الشعر ولو بصوت مرتجف، لأُبدّد ما قد عراني من خوف.

وهنا، برزتْ ممرضة ممشوقة القد، لا يبدو من لثامها الأبيض، سوى عينين سوداوين تشعّان بجاذب سحري. فرحتُ أتمتم أبياتي حول سحر العيون ورف الجفون. غبتُ عمّا كنت فيه من جراحة دقيقة يقوم بها الدكتور وليد بمنتهى القدرة والمهارة والاندفاع. وعدتُ على جناح الذكرى إلى عهد الشباب وما كان فيه من فتونٍ وغزل وهيام. أليست لغة العيون معجزة اللغات أحياناً؟

شعرتُ بيد الممرضة تضغط على شمالي المثقلة بكيس المصْل، كأنها تقول: هل من مزيد؟

سرَتْ عَدوى الشعر إلى أحد المعاونين للطبيب الثقيف فقال بغنّة شعرية عذبة:

إنَّ العيون التي في طَرفها حورٌ
قتلْننا ثمَّ لم يحيينَ قَتلانا
يصرعْن ذا اللبِّ حتى لا حراك به
وهنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا

هنا، استذكرتُ أشعاراً عن العيون لعَنترة وجميل بُثينة وعمر بن أبي ربيعة. ولم أنسَ الأخطل الصغير بشارة الخوري صاحب «الهوى والشباب» و«جفنه علّم الغزل».

في هذه اللحظة بالذات، علا صوتِ الدكتور وليد الهادئ الهادي يقول لي بصوت كلّه ثقة وابتهاج: الحمد لله على سلامتك. انتهت العملية على أحسن ما يُرام من النجاح، عملية مثل الذهب.

خرجَ النّطاسي البارع من غرفة العمليات يواكبني ويربّتُ على كتفي في رفق وقال: أطيب التهانئ، العملية في منتهى النجاح. وكان قد انقضى على بدء عمليتي، ساعة خُيّل إليَّ انها لحظات قليلة، فقلتُ في نفسي: أهذه عملية جراحية أم ندوة أدبية؟

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه